لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟!!

جدلية النهضة والتخلف في الفكر الاسلامي

(دراسة فكرية مقارنة)

القسم الثالث

سعد صهيب الزيباري
saad76@yahoo.com

التغيير والإصلاح في منظور أبو الأعلى المودودي
(١٣٢١-١٣٩٩هـ) (١٩٠٣-١٩٧٩م)

يعد المودودي من أبرز رواد النهضة الإسلامية في شبه القارة الهندية، كرس جهوده في تبليغ الإسلام الصحيح إلى الناس، ومثل حركة إصلاحية في طول البلاد وعرضها، مارست العمل الإسلامي المنظم في إطار القانون، وساهمت من أجل تحكيم الشريعة الإسلامية، ووقفت في وجه الإتجاهات العلمانية، التي كانت تحاول أن تمسك بزمام الأمور في المنطقة. وكانت هناك نقاط تأثير وتأثر بين دعوة الإخوان المسلمين وفكرة الجماعة الإسلامية، ساهمت في تعزيز أواصر الوحدة الإسلامية بين المسلمين في أقصى الشرق إلى أقصى الغرب..

« كان رأي المودودي دائما: أن الإسلام ليس نظاما فلسفيا محضا للحياة، بل هو نظام كامل تام للحياة، وما لم نر نموذجا له ممثلا أمامنا، فلن نتمكن أبداً من تقديم أية خدمة للإسلام عن طريق الكلام والحديث.. » موسوعة الأديان والمذاهب، ص١٧٧.

هذا، ويتضمن برنامج الدعوة الإصلاحي للمودودي نقاطاً أربعة هي:

- تزكية الأفكار وتطهيرها.
- إصلاح ذات الفرد.
- إصلاح المجتمع.
- إصلاح نظام الحكم.

ولقد ركز المودودي جهوده الإصلاحية لمواجهة:

- سيطرة هيمنة الحضارة الغربية واستئثارها بثروات العالم؛ والتحكم في مقدراته الإقتصادية.
- مواجهة القيادات التي تحمل أفكاراً تتعارض والفكر الإسلامي.
- لمواجهة الأفكار التي تحمل طابع الجمود الديني.

أنظر: موسوعة الأديان والمذاهب الفكرية المعاصرة، ص١٧٧.

وقد ورد في دستور الجماعة الإسلامية التي أسسها المودودي: إن الجماعة تمارس الطرق الدستورية والقانونية للقيام بالإصلاح الذي تنشده، كما أنها تحاول كسب تأييد الرأي العام للتغيير الذي وضعته نصب عينيها.

ومن الكتاب الإسلاميين الذين نظروا لمشكلة التخلف الحاصل في بلاد العالم الإسلامي نذكر منهم: شكيب أرسلان (١٨٦٩- ١٩٤٩م)، وبديع الزمان سعيد النورسي (١٨٧٧- ١٩٦٠م) ومالك بن نبي (١٩٠٥- ١٩٧٣م)، وأبو الحسن الندوي (١٩١٤-١٩٩٩م)، والمفكر جودت سعيد، والعلامة الشيخ يوسف القرضاوي..

النهضة والتخلف في مفهوم العلامة شكيب أرسلان (١٢٨٦-١٣٦٦هـ / ١٨٦٩-١٩٤٦م)؛

ألف العلامة شكيب أرسلان كتابا على صيغة تساؤل ظل يؤرق الكثير من الناس، ولا يزال إلى الآن يهيمن على عقول الكثيرين؛ وهو: (لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟!) يقول في هذا الكتاب: « كيف نرى في أمة ينصرها الله بدون عمل ويفيض عليها الخيرات التي كان يفيضها على آبائها؟ وهي قد قعدت عن جميع العزائم التي قد كان يقوم بها آباؤها؟ وذلك يكون مخالفا للحكمة الإلهية والله هو العزيز الحكيم. ما قولك في عزة دون استحقاق، وفي غلة دون حرث ولا زرع، وفي فوز دون سعي ولا كسب، وفي تأييد دون أدنى سبب يوجب التأييد؟(أنظر: لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟ شكيب أرسلان، دار الفكر-بيروت، ط(٤)، ١٩٦٥م، ص١٦-١٧) ويضيف:« لا جرم ان هذا مما يغري الناس بالكسل، ويحول بينهم وبين العمل، بل مما يخالف النواميس التي أقام الله الكون عليها، وهو مما يستوي به الحق والباطل، والضار والنافع، والموجب والسالب، وحاشا لله أن يفعل ذلك. ولو أيد الله مخلوقا بدون عمل لأيد من دون عمل محمداً رسوله ولم يحوجه إلى القتال والنزال والنضال، واتباع سنن الكون الطبيعية للوصول إلى الغاية». ص١٧.

«ولكن الأمم الاسلامية تريد حفظ استقلالها بدون مفاداة ولا تضحية، ولا بيع أنفس ولا مسابقة إلى الموت، ولا مجاهدة بالمال، وتطالب الله بالنصر على غير الشرط الذي اشترطه في

النصر، فإن الله سبحانه يقول: ﴿ولينصرن الله من ينصره﴾ ويقول : ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ ص٢٠–٢١. ومن المعلوم ان الله تعالى غير محتاج إلى نصرة أحد، وإنما يريد بنصرته تعالى إطاعة أوامره واجتناب نواهيه. ولكن المسلمين أهملوا جميع ما أمرهم به كتابهم في ذلك أو أكثره، واعتمدوا في استحقاق النصرة على كونهم مسلمين موحدين، وظنوا أن هذا يغنيهم عن الجهاد بالأنفس والأموال..» ص٢١–٢٢.

ويقول العلامة شكيب في كتابه: « من أعظم أسباب تأخر المسلمين الجهل... ومن أعظم أسباب تأخر المسلمين العلم الناقص، الذي هو أشد خطراً من الجهل البسيط.. ومن أعظم أسباب تأخر المسلمين فساد الأخلاق.. ومن أكبر عوامل تقهقر المسلمين فساد أخلاق أمرائهم... وجاء العلماء المتزلفون لأولئك الأمراء، المتقلبون في نعمائهم، وأفتوا بجواز قتل الناصح بحجة أنه شق عصا الطاعة وخرج عن الجماعة..» ص٥٤–٥٥

ويمضي (شكيب أرسلان) في اضاءة سبيل النهضة قائلا: « فالمسلمون يمكنهم إذا أرادوا بعث العزائم، وعملوا بما حرضهم عليه كتابهم، أن يبلغوا مبالغ الأوروبيين والأمريكيين واليابانيين من العلم والارتقاء، وان يبقوا على إسلامهم كما بقي أولئك على أديانهم، بل هم أولى بذلك وأحرى، فإن أولئك رجال ونحن رجال، وإنما الذي يعوزنا الأعمال، وإنما الذي يضرنا هو التشاؤم والإستخذاء وانقطاع الآمال، فلننفض غباء اليأس ولنتقدم إلى الأمام، ولنعلم أننا بالغو كل أمنية بالعمل والدأب والإقدام، وتحقيق شروط الإيمان التي في القرآن:

﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾

أسباب النهضة والتخلف في تصور بديع الزمان سعيد النورسي (١٢٩٤هـ- ١٣٧٩هـ/١٨٧٧م- ١٩٦٠م):

والنورسي أحد رواد النهضة الإسلامية في تركيا، كرس نشاطه على مقاومة المد العلماني، وقاد حركة ساهمت في ايقاظ العقيدة الإسلامية في النفوس، في وقت كان مجرد الإنتماء إلى الإسلام يعد جريمة يعاقب عليها القانون، وخرج يدعو إلى الحقائق الإيمانية في قلب الدولة العلمانية..

« والنور جماعة دينية إسلامية هي اقرب في تكوينها إلى الطرق الصوفية منها إلى الحركات

سعيد النورسي

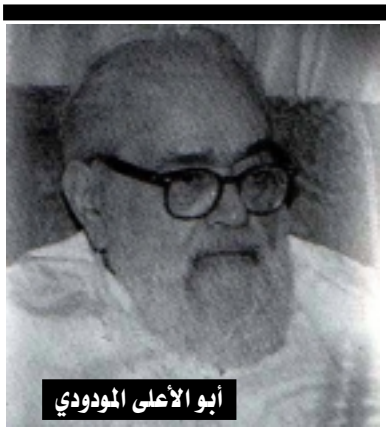
أبو الأعلى المودودي

المنظمة، ركز مؤسسها على الدعوة إلى حقائق الإيمان والعمل على تهذيب النفوس مُحْدثاً تياراً إسلامياً في محاولة منه للوقوف أمام المد العلماني الكمالي الذي اجتاح تركيا عقب سقوط الخلافة العثمانية، واستيلاء كمال اتاتورك على دفة الحكم فيها.. » أنظر: موسوعة الأديان والمذاهب المعاصرة، ص٥٢١.

ولمعرفة أسباب التخلف وسبل مواجهتها في تصور بديع الزمان سعيد النورسي نقرأ في أحدى كتاباته؛ نموذجا يوضح (الرؤية النورسية) في تحديد مشاكل الأمة الإسلامية: « لقد تعلمت الدروس في مدرسة الحياة الإجتماعية البشرية، وعلمت في هذا الزمان والمكان: أن هناك ستة أمراض، جعلتنا نقف على أعقاب القرون الوسطى في الوقت الذي طار فيه الأجانب – وخاصة الأوروبيين– نحو المستقبل.. وتلك الأمراض هي:

أولا: حياة اليأس الذي يجد فينا أسبابه وبعثه. ثانيا: موت الصدق في حياتنا الإجتماعية والسياسية. ثالثا: حب العداوة. رابعا: الجهل بالروابط النورانية التي تربط المؤمنين بعضهم ببعض. خامسا: سريان الإستبداد، سريان الأمراض المعدية المتنوعة. سادسا: حصر الهمة في المنفعة الشخصية.

ومعالجة هذه الأمراض الفتاكة، في نظر النورسي، يتحقق بـ(الأمل): أي شدة الإعتماد على الرحمة الإلهية والثقة بها، و(الصدق)، و(المحبة)، و(الشورى)..

(المناظرات / الخطبة الشامية، سعيد النورسي، ترجمة وتحقيق: احسان قاسم الصالحي، من كليات رسائل النور، صيقل الإسلام (٨) ١٩٩٥م ص٤٩١– ٤٩٢)

ونجد عند النورسي –رحمه الله– رؤية استشرافية للمستقبل الإسلامي؛ وهي تتمثل في مقولته المشهورة التي تقول: « إن أوروبا وأمريكا حبالى بالإسلام، وستلدان يوماً ما دولة إسلامية، كما حبلت الدولة العثمانية بأوروبا؛ وولدت دولة أوروبية » (المناظرات، نفس المصدر السابق سعيد النورسي، ص٤٩٩.)

النهضة الحضارية في رؤية المفكر مالك بن نبي (١٩٠٥- ١٩٧٣م):

إن كتابات المفكر الكبير مالك بن نبي في (مشكلات الحضارة) أخذت بعداً فكريا ومنهجيا أكثر عمقا وأكاديمية.. كما في كتابه القيم (شروط النهضة) الذي أصدره في عام (١٩٤٩)، كنموذج في تفسير ظاهرة التخلف، واستشفاف محددات النهضة الحضارية، والقيمة الحقيقية لكتابات مالك بن نبي تتحدد في اخضاعه الحضارة لمحك الدراسة العلمية التحليلية، وهو الذي نهض في رصد مشكلات العالم الاسلامي، وسبل النهوض به في كتاب آخر له بعنوان (وجهة العالم الاسلامي) الذي أصدره عام ١٩٥٤م عرض فيه نظريته المعروفة باسم (القابلية للاستعمار)، و(الدورة

التاريخية) لحركة الأمم والحضارات ..

يعتبر مالك بن نبي، ان مشكلة الأمة هي مشكلة حضارية، ولا يمكن الإرتفاع بالفكرة إلا بفهم الحضارة وتطورها، وحيث ان الفلسفة تهتم بخصائص حضارية، فإن المؤرخ أو فيلسوف التاريخ لا يؤرخ لشخصيات معينة بل يؤرخ للحضارة في حد ذاتها، وهنا يثني مالك بن نبي على ابن خلدون (٧٣٢هـ ٨٠٨هـ) الذي نقل فلسفة التاريخ من تفسير بطولي إلى تفسير حضاري، لأن التاريخ يتحقق في الأحداث، والتفسير الحضاري يوضح طبيعة هذه الأحداث وأسبابها.

وتناول كتاب (فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي.. دراسة إسلامية في ضوء الواقع المعاصر) آراءه حول فلاسفة الحضارة بدءاً من ابن خلدون حتى المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي (١٨٨٩–١٩٧٥م) صاحب نظرية التحدي والإستجابة (Challenge and Response) مروراً بأوزفالد شبنجلر (١٨٨٠–١٩٣٦) صاحب النظرية العضوية في تفسير الحضارات.. يقول مالك بن نبي: إن كتابة التاريخ قبل ابن خلدون تفتقد إلى التحليل والربط بين الأحداث، فالتاريخ كان ضربا من الأحداث المتتابعة، وان ابن خلدون ركز على السببية في التاريخ والواقع الإجتماعي، لأنه لا يمكن فهم التاريخ إلا بفهم الواقع الإجتماعي المحيط بالحوادث التاريخية...)

أمانظرية الفيلسوف الألماني أوزفالد شبنجلر (١٨٨٠–١٩٣٦)، فإنها تصور نشوء الحضارة وانهيارها بالكائن الحي، متأثرة بالنظرية الداروينية. يرى شبنجلر بأن الحضارة تولد وتنضج وتموت، والواقع ان شبنجلر قد تأثر بفلاسفة المدرسة الحتمية في ألمانيا مثل راتزل (١٨٤٤–١٩٠٤م)، الذي نادى بنظرية عضوية الدولة، وأنها مثل الكائن الحي.

يعد أرنولد توينبي، في نظر مالك بن نبي، أكثر وعيا للتاريخ البشري، من أوزفالد شبنجلر، فشبنجلر لا يهتم بعملية التنبؤ الحضاري، وأرنولد توينبي يطرح نظريته من خلال التحدي للظروف التي يعيشها الإنسان، فالظروف الصعبة التي يعيشها الإنسان هي السبيل إلى دفعه إلى التحضر، بل إن رقة العيش في نظر توينبي تكون حائلا دون قيام الحضارة. فإذا كان الترف ورغد العيش عند ابن خلدون يؤدي إلى زوال الدولة، فإنه يحول دون قيام حضارة في رأي توينبي..

(أنظر: قراءات ومراجعات مجلة (إسلامية المعرفة) العدد السادس،١٤٧١هـ– ١٩٩٦م، لكتاب (فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي.. دراسة إسلامية في ضوء الواقع المعاصر) للدكتور سليمان الخطيب، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ–١٩٩٣م)

فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي، إذاً، قائمة على أساس حركة (التعاقب الدوري)، أو باصطلاح آخر (الدورة الحضارية) ونظرية التعاقب الدوري من أشهر النظريات التاريخية، التي كان من دعاتها مفكر علم الاجتماع الإسلامي (ابن خلدون)، و(أوزلد إشبنجلر)، و(أرنولد توينبي)، و(ميشيل فوكو).(أنظر: مالك بن نبي ومشكلات الحضارة، دراسة تحليلية نقدية، زكي أحمد، دار الصفوة، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ–١٩٩٢م، ص٧٧.)

ويقسم مراحل الحضارة إلى ثلاثة مراحل: ففي مرحلة الروح يتسم المجتمع بقوة الإرادة وبحماسة النهضة وهذه بدايات التحضر. ثم ينتقل المجتمع إلى مرحلة العقل، وهي مرحلة الحضارة، وبعد أن يصاب العقل بالتعب ويفقد تدريجيا قوته الأخلاقية التوجيهية المحفزة نحو البناء، يدخل مرحلة الغريزة وهي مرحلة بدايات التخلف، وبسيطرة مرحلة الغريزة ينتكس العقل، ويفقد قيمته الخلاقة في الإبداع والبناء والإعمار، وتتولد حينئذ مضاعفات التخلف. (مالك بن نبي ومشكلات الحضارة، نفس المصدر السابق، ص٨٠.)

شروط الحضارة في العالم الإسلامي من منظور مالك بن نبي:

تناول بن نبي أهم شروط الحضارة في كتابه (شروط النهضة) الذي نشره في عام ١٩٤٧م باللغة الفرنسية، وصدرت طبعته العربية في القاهرة سنة ١٩٥٧م، وتتحدد هذه الشروط في نظر مالك بن نبي من خلال ثلاث مكونات أساسية وهي: (الانسان)، و(التراب)، و(الوقت)، ويمكن تحديدها في المعادلة الآتية: (الإنسان+ التراب+ الوقت = الحضارة)

يقول بن نبي « ان مشكلة الحضارة تنحل إلى ثلاث مشكلات أولية: مشكلة الإنسان، مشكلة التراب، مشكلة الوقت. فلكي نقيم بناء حضارة لا يكون ذلك بأن نكدس المنتجات، وإنما بأن نحل هذه المشكلات الثلاثة من أساسها » شروط النهضة، مالك بن نبي، ص٤٥.

وهذه العناصر الثلاثة لا تقوم بوظيفتها الحضارية، إلا إذا توفر ما يصطلح عليه بن نبي (مركب الحضارة)، ويقصد به (الفكرة الدينية)... وينهض بن نبي في تحليل عناصر الحضارة الثلاث:

العنصر الأول؛ الإنسان: « ان كل تفكير في مشكلة الانسان هو تفكير في مشكلة الحضارة » مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مالك بن نبي، ص١٠٠.

وان المشاكل التي تحيط بالانسان تختلف باختلاف بيئته، فالإنسانية لا تعاني مشكلة واحدة، بل مشاكل متنوعة، تبعا لتنوع مراحل التاريخ. فلا يمكن لنا أن نقارن في الوقت الحاضر بين رجل أوروبا المستعمر، ورجل العالم الإسلامي القابل للإستعمار، لأن كليهما في طور تاريخي خاص به..

فالأمر في الحالة الأولى يتعلق بحاجات غير مشبعة، على حين يتعلق في الأخرى بعادات راكدة... وعليه فالأمر متصل بمشكلتين مختلفتين في أساسهما، فهنالك هُم في حاجة إلى مؤسسات، بينما نحتاج هُنا إلى رجال، فمن الرجل تنبع المشكلة الإسلامية بأكملها » (شروط النهضة، مالك بن نبي، ص٧٥.)

العنصر الثاني؛ التراب: « التراب أحد العناصر الثلاثة التي تكون الحضارة، فإذا ما توفر (المركب الديني) لتركيب هذه العناصر، فإننا نرى التراب في بلاد الإسلام

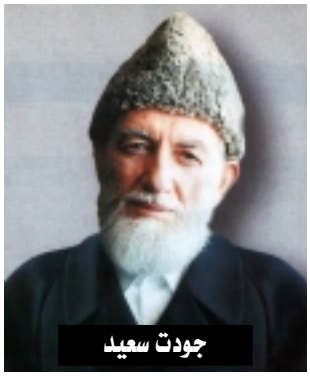
جودت سعيد

يوسف القرضاوي

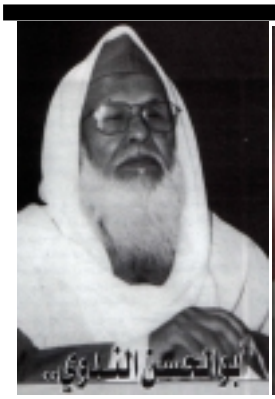
أبو الحسن الندوي

جديراً ببحثه كعامل من عوامل الحضارة.. » شروط النهضة، ص١٣١. والمقصود من التراب الإمكانيات والطاقات والثروات المعدنية والزراعية وغيرها التي تتوفر في مجتمع من المجتمعات.

العنصر الثالث؛ الوقت: « بتحديد فكرة الزمن، يتحدد معنى التأثير والإنتاج، وهو معنى الحياة الحاضرة الذي ينقصنا. هذا المعنى الذي لم نكسبه بعد، هو مفهوم الزمن الداخل في تكوين الفكرة والنشاط، في تكوين المعاني والأشياء. فالحياة والتاريخ الخاضعان للتوقيت كان وما يزال يفوتنا قطارهما، فنحن في حاجة ملحة إلى توقيت دقيق، وخطوات واسعة لكي نعوض تأخرنا » شروط النهضة، مالك بن نبي، ص١٤٠.

ونقتطف فقرات من منهجه في التغيير والاصلاح: « ان السياسة الحقيقية التي تغير وجه الأشياء ووضع الشعب، ليست في المطالبة بحق، ولكنها في القيام بواجب» مبدأ الواجب، أو غير نفسك تغير العالم من حولك.

فهو يجد الحل في مبدأ الواجب قبل مبدأ الحق فإن « التاريخ لا يبدأ من مرحلة الحقوق، بل من مرحلة الواجبات المتواضعة في أبسط معنى للكلمة ».. « فالثورة والتغيير السياسي يرتكزان عنده على وحدة اساسية هي (الانسان) الذي ينتظم وفق علاقات اجتماعية معينة وذات اطار حضاري معين »

« والمسألة في رأيه تبدأ من تغيير هذا الانسان وفق برنامج خاص وصفه تفصيلا في كتابه (شروط النهضة) .. وهو يفهم الظاهرة الاستعمارية لا بالمعنى السطحي الذي يتناوله السياسيون العاديون، وانما في جوهرها الدقيق الذي يسميه «القابلية للاستعمار » فالشعوب التي لا تعرف كيف تستفيد من طاقات انسانها ووقتها وترابها تبقى مستعمرة حتى وان رحل الاستعمار عنها. وحال شعوب ما بعد الاستقلال خير شاهد .. ويقول: « إن علينا أن نكون حضارة، أي نبني لا أن نكدس، فالبناء وحده هو الذي يأتي بالحضارة لا التكديس، فتكديس منتجات الحضارة الغربية لا يأتي بالحضارة فالحضارة هي التي تكون منتجاتها وليست المنتجات هي التي تكون الحضارة.. » (أنظر: تأملات، مالك بن نبي، ص١٦٧)

ويقول: « ولكي نحقق استقلالنا الإقتصادي والسياسي علينا أن نستعيد أصالتنا الفكرية، واستقلالنا في ميدان الأفكار، وذلك عن طريق معرفة واستيعاب الأفكار التي أثبتت فعاليتها في الحضارة الإسلامية منذ ألف عام.. ». وليس عن طريق تحديث التخلف أو الحضارة الشيئية حسب عبارة مالك، أو الحداثة المسخ على حد تعبير المفكر عبدالإله بلقزيز..

النهضة في مفهوم أبو الحسن علي الحسن الندوي (١٣٣٣-١٤٢٠هـ) (١٩١٤-١٩٩٩م):

الشيخ أبو الحسن الندوي مفكر اسلامي، ونموذج حي من السلف الصالح، حمل لواء الدعوة والإصلاح، وتفاعل مع القضايا الإسلامية في العالم أجمع، سعى إلى تأصيل الفكر الإسلامي، ونقد الحضارة الغربية، وعرض فكراً جديداً يتفق مع مبادئ الإسلام الصحيح؛ ويواكب روح العصر النابض بالحياة، صاحب مشروع فكري متميز، أخذ على عاتقه إحياء الإيمان في النفوس، وبعث الثقة والأمل بالمستقبل الإسلامي في القلوب، لم يأل جهداً في إعادة عرض الفكر الإسلامي من جديد، دعا إلى الوسطية ونبذ العنف، ودعا إلى ما في الإسلام من قيم التسامح والانسانية..

ركائز الفكر الدعوي عند العلامة أبي الحسن الندوي:

استخلص الشيخ يوسف القرضاوي بعد رحلة من إنتاج الشيخ الندوي عشرين ركيزة، استند إليها الشيخ الندوي في رحلته مع الدعوة والفكر الإسلامي هي:

تعميق الإيمان في مواجهة المادية.. إعلاء الوحي على العقل.. توثيق الصلة بالقرآن.. توثيق الصلة بالسنة والسيرة النبوية.. إشعال الجذوة الروحية الإيمانية الربانية.. اتباع أسلوب البناء لا الهدم والجمع لا التفريق.. احياء روح الجهاد في سبيل الله.. استيحاء التاريخ الإسلامي وبطولاته.. نقد الفكرة الغربية والحضارة المادية.. نقد الفكرة القومية والعصبيات الجاهلية.. تأكيد عقيدة النبوة.. ومقاومة الردة الفكرية.. تأكيد دور الأمة المسلمة واستمرارها في التاريخ.. بيان فضل الصحابة ومنزلتهم في الدين.. التنويه بقضية فلسطين وتحريرها.. العناية بالتربية الإسلامية الحرة.. العناية بالطفولة والنشء.. إعداد العلماء والدعاة الربانيين المعاصرين.. ترشيد الصحوة الإسلامية.. ودعوة غير المسلمين.

(أنظر: الشيخ أبو الحسن الندوي.. بحوث ودراسات، عرض د. مأمون جرار، مجلة الأدب الإسلامي العددان السادس والسابع والعشرون، ١٤٢١هـ-١٩٩٩م، ص٩٨-٩٩)

عرض الأستاذ الندوي في كتابه القيم (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) بعض الخطوط العريضة في بروز ظاهرة التخلف في العالم الاسلامي أو بالأحرى في عموم الشرق الأوسط.

يقول في اسباب نهضة الاسلام: كان

زمام القيادة الاسلامية – والعالمية بالواسطة– بيد الرجال الذين كان كل فرد منهم معجزة جليلة لمحمد (ﷺ)، ايمانا وعقيدة وعملاً وخلقاً وتربية وتهذيبا، وتزكية نفس وسمو سيرة، وكمالا واعتدالا، لقد صاغهم النبي (ﷺ) صوغا، وصبهم في قالب الاسلام صبا، فعادوا لا يشبهون أنفسهم إلا في الأجساد لا في الميول والنزعات، ولا في الرغبات والأهواء... وكانوا أمثلة كاملة وأقيسة تامة للدين والدنيا والجمع بينهما. فكانوا أئمة يصلون بالناس، وقضاة يفصلون قضاياهم، ويحكمون بينهم بالعدل والعلم، وأمنة لأموال المسلمين وخزنتهم، وأمراء يباشرون إدارة البلاد ويشرفون على أمور المملكة ويقيمون حدود الله... فكان الدين والسياسة يتمثلان في شخص واحد وهو شخص الخليفة وأمير المؤمنين، حوله جماعة ممن تخرجوا في المدرسة النبوية، أفرغوا في قالب واحد يحملون روحا واحدة، وتلقوا تربية واحدة، يستشيرهم الخليفة ويستعين بهم، فلا يقطع أمراً ذا بال حتى يشهدوه، فسرت روحهم في المدنية ونظام الحكم وحياة الناس واجتماعهم وأخلاقهم، وانعكست ميولهم ورغباتهم في المدنية وظهرت خصائصهم فيها، فلا عداء بين الروح والمادة ولا صراع بين الدين والسياسة ولا تفريق بين الدين والدنيا، ولا تجاذب بين المصالح والمبادئ، ولا تزاحم بين الأغراض والأخلاق، ولا تناحر بين الطبقات؛ ولا تنافس في الشهوات).

(أنظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن علي الحسني الندوي، مكتبة السنة لنشر العلم، القاهرة، ١٤١٠هـ– ١٩٩٠م، ص١٨٤–١٨٦.)

ويمضي في القول: ولكن، وقعت تحريفات في الحياة الاسلامية؛ منها: فصل الدين عن السياسة؛ وقع فصل بين الدين والسياسة عمليا، فإن هؤلاء لم يكونوا من العلم والدين بمكان يستغنون به عن غيرهم من العلماء وأهل الدين فاستبدوا بالحكم والسياسة... فتحررت السياسة من رقابة الدين، وأصبحت قيصرية أو كسروية مستبدة، وملكا عضوضا، وأصبحت السياسة كجمل هائج حبله على غاربه، وأصبح رجال الدين والعلم بين معارض للخلافة وخارج عليها، وحائد منعزل اشتغل بخاصة نفسه وأغمض العين عما يقع ويجري حوله، يائسا من الإصلاح، ومنتقد يتلهف ويتنفس الصعداء مما يرى ولا يملك من الأمر شيئا، ومتعاون مع الحكومة لمصلحة دينية أو شخصية، ولكل ما نوى، وحينئذ انفصل الدين والسياسة، وعادا كما كانا قبل عهد الخلافة الراشدة. أصبح الدين مقصوص الجناح مكتوف الأيدي، وأصبحت السياسة مطلقة اليد حرة التصرف نافذة الكلمة صاحبة الأمر والنهي، ومن ثم أصبح رجال العلم والدين طبقة متميزة، ورجال الدنيا طبقة متميزة، والشقة بينهما شاسعة، وفي بعض الأحيان بينهما عداء وتنافس)). (أنظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن علي الحسني الندوي، ص١٩٠–١٩١.)

والفكرة التي يقوم عليها هذا الكتاب هو تفعيل الدور الحضاري للمسلم المعاصر، وكما يقول أبو الحسن نفسه:

« في الحقيقة هناك فكرة مسيطرة على المثقفين جميعا، وهي ان المسلمين هم ممثلون فقط، فهناك مسرحية تتم من غير استشارة المسلمين أو معرفة آرائهم واتجاهاتهم، مسرحية عالمية، يلعب فيها المسلمون دورهم كممثلين (ACTOR) ولكني غيرت هذه الفكرة، وغيرت التاريخ.. ولعل كان لي بعض السبق في هذا بعون الله تعالى، بأن المسلمين ليسوا (ACTOR)، بل هم (FACTOR)هم العاملون وهم الذين يصوغون المسرحية ويستطيعون صياغة المسرحية العالمية كلها، ولا يمثلون فيها كقطع الشطرنج مثلا، بل المسلمون كانوا يصوغون الأحداث، كانوا صاغة ولم يكونوا مصوغين.. يجب أن يكون المسلمون هكذا.. ولما أفلت زمام القيادة من المسلمين أصبح العالم منفلتا، وأصبحت الأمم والشعوب دواب من غير راع.

العملية التي قام بها هذا الكتاب ونجح فيها، هي انها غيرت مركز المسلم من كونه ممثلا مقلدا تابعا محكوما عليه مأموراً، إلى كونه صائغا عاملاً وسابكاً ومغيراً للمصير، ومبشراً لجيل جديد.. فلما كان المسلمون هم القادة للعالم البشري ولرجال البشرية، كان العالم يسير في طريق سوي، ولما عُزل المسلمون عن قيادتهم العالمية أصبحت الأمم كالدواب السائمة، (حوار مع أبو الحسن علي الحسن الندوي، مجلة المجتمع الكويتية العدد (١٣٣٨) ١٩٩٩/٢/١٦م، ص٥١.)

التغيير والإصلاح في فكر (جودت سعيد) (و١٣٥٠هـ-١٩٣١م)

اهتم المفكر جودت سعيد بترشيد الوعي الإسلامي، وبلورة مفهوم التغيير؛ من خلال سلسلة (سنن تغيير النفس والمجتمع) والتي صدر منها:

مذهب ابن آدم الأول (١٩٦٦م)، الإنسان كلاً وعدلاً (١٩٦٩م)، حتى يغيروا ما بأنفسهم (١٩٧٢م)، فقدان التوازن الإجتماعي (١٩٧٨م)، العمل قدرة وإرادة (١٩٨٠م)، اقرأ وربك الأكرم (١٩٨٨م) وله في سلسلة أخرى (رياح التغيير.. قضايا الإنسان والعلم والتأويل) (١٩٩٥م)، وكتاب (مفهوم التغيير)، بالإضافة إلى كتب أخرى..

يقول جودت سعيد في كتابه حتى يغيروا ما بأنفسهم : (إن عجز المسلم عن التغيير، يرجع في كثير منه، إلى غياب وضوح سنن تغيير ما بالنفس.. وهنا تظهر أهمية معرفة سنن التغيير لما بالأنفس، سواء كان هذا التغيير الذي حدث ببطء من قديم، أو الذي يحدث الآن بسرعة كبيرة..) ص ٥٧. (فلا بد إذن –في رؤية جودت سعيد– من معرفة سنن التغيير لما بالأنفس، كما لا بد من معرفة ما ينبغي أن نغيره، من الأوهام، وما ينبغي أن نثبته من الحقائق، ومعرفة، مَن هؤلاء الذين ينبغي أن نجري على ما بأنفسهم هذا التغيير، وإن اختلفت معادلتهم الشخصية وبيئتهم، إذ أنهم مشتركون في أصل البلاء..) ص٥٨.

(والتغييرات التي يحدثها الأقوام، فإن الله علقها بما بالأنفس. فما هذا الذي بالأنفس؛ وهل للبشر قدرة على تغييره بما مكنهم الله فيه؟

إن المراد بما بالأنفس: الأفكار، والمفاهيم، والظنون، في مجالي الشعور واللاشعور.. وتمكن الإنسان من استخدام سنن التغيير، يعطي للإنسان سيطرة على سنة التاريخ، وسيطرة على صنعه وتوجيهه..) ص٧٣.

وإن العقل حين يفقد القدرة على فهم السنن الإلهية في تغيير ما بالأنفس؛ فإنه لا يستطيع أن يحقق تغييراً شاملا..

ويقول في كتابه رياح التغيير: (إن العالم الإسلامي لا يساير التقدم الذي يسير به الآخرون؛ فماذا ينبغي أن نفعل لنسايرهم؟ إن علينا أن ننشر العلم، أن ننشر القرآن (خيركم من تعلم القرآن وعلمه) أخرجه البخاري عن عثمان في فضائل القرآن، باب خيركم من علم القرآن.

إن مدارس العالم الإسلامي تحفظ القرآن للأطفال، ولكنها لا تعلمهم كيف يفهمونه، وكيف يربطونه مع الحياة..) (أنظر: رياح التغيير.. قضايا الإنسان والعلم والتأويل، جودت سعيد، دار الفكر المعاصر بيروت–لبنان، الطبعة الثانية ١٤١٩هـ–١٩٩٨م، ص١٨٣–١٨٤.)

امكانات النهضة والإصلاح أو (الحل الإسلامي) في رؤية الدكتور العلامة (يوسف القرضاوي):

الشيخ القرضاوي من دعاة الوسطية الإسلامية التي تجمع بين الأصالة والمعاصرة، دعا إلى الإلتزام بمنهجية الإسلام التي لا تستغني عن تجارب الآخر، كما دعا إلى تجديد الموروث الحضاري وتفعيل دور المسلم المعاصر، دعا إلى استقراء المستقبل من خلال الحاضر، ودعم الحاضر بفقه الماضي، مارس العمل الإسلامي ولا يزال من أجل دعوة سلفية الأصول سنية الإتباع عصرية المواجهة، قدم الفكر الإسلامي الذي يوازن بين الثوابت والمتغيرات..

من خلال سلسلة كتاباته التي أصدرها بعنوان (حتمية الحل الإسلامي)، والتي صدر الجزء الأول منها سنة ١٩٧١م بعنوان (الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا؟) ثم صدر الجزء الثاني (الحل الإسلامي فريضة وضرورة) سنة ١٩٧٤م، والجزء الثالث (بينات الحل الإسلامي.. وشبهات المتغربين والعلمانيين) سنة ١٩٨٧م، وصدر الجزء الرابع والأخير بعنوان (أعداء الحل الإسلامي) سنة ٢٠٠٠م.

يقول يوسف القرضاوي في توصيف الداء: « تشكو شعوبنا تخلفا في العلم، وتخبطا في السياسة، واضطرابا في الإقتصاد، وتفككا في الإجتماع، وتدهوراً في الأخلاق، وبلبلة في الأفكار، وزعزعة في العقائد، وضعفا في التربية، وخواءً في الروح، واختلافا في الصفوف: اختلافا على الغايات والأهداف، فضلا عن الوسائل والطرائق.» (أنظر: الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا، د. يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة–بيروت، الطبعة الخامسة عشرة،١٤٠٩هـ١٩٨٩م، ص١٦.)

ويقول: « لقد صمم الغرب الزاحف أن يهدم ويدمر، ولكن بأسلوب غير أسلوب التتار والصليبيين القدماء، لقد اتجه إلى تدمير العقائد والأفكار، وهدم القيم والأخلاق، وتحطيم الآداب والتقاليد، بمعاول خفية لا تراها الأعين بسرعة، ولا تلمسها الأيدي بسهولة، وبأساليب ماكرة لا تثير الشعوب، ولا تغضب الجماهير، وبهذا نجح في قتل الشعوب ولكن بغير اطلاق الرصاص، وضرب السيوف، بل بطريقة السم البطيء.» الحلول المستوردة، ص٢٠.

وسائل التأثير الغربي في الشرق الإسلامي:

الوسيلة الأولى: **التربية والتعليم**: ان الغرب اتخذ التعليم والتربية وسيلته الأولى في التأثير والتغيير الذي ينشده، وقد ركز نشاطه في هذا الجانب على كل الجبهات والمستويات، سالكا إلى غايته طرقا شتى: بدءً بـ(البعثات إلى الغرب)، و(المدارس التبشيرية والأجنبية)، وانتهاءً بـ(المدارس الحديثة).. ص٢٢.

الوسيلة الثانية: **الصحافة والإعلام**: فالصحافة وسيلة شعبية ناجحة تستطيع أن تغير بموضوعاتها وأساليبها العقول والأفكار، والقيم والموازين، وأن توجه الرأي العام إلى ما تريد من مفاهيم جديدة، وأن تضعها في الإطار المشوق.. بالمقالة حيناً، وبالخبر أحياناً، وبالصورة تارة، وبالقصة تارة أخرى وباللقاءات والتحقيقات الصحفية، وبغير ذلك من الأساليب. ص٣٠

الوسيلة الثالثة: **الغزو الإجتماعي**: وذلك بإدخال العادات والتقاليد الغربية والأذواق الغربية في حياة الأسرة المسلمة والمجتمع المسلم.. ص٣٢.

معالم الحل الإسلامي: في الناحية الروحية والأخلاقية:

١– احياء المعاني الربانية من الإيمان بالله وتوحيده، والإيمان برسالاته، وبالجزاء الأخروي، باعتبارها أهداف الحياة العليا، وغايات الوجود الإنساني، والعمل على دعمها وتثبيتها وحمايتها، بكل الوسائل والأساليب.

٢– تربية الأمة على معاني التقوى لله والإخلاص له، والثقة به، والتوكل عليه، وغرس الإحساس الدائم برقابة الله على كل أعمال الإنسان، واطلاعه على سره ونجواه، وتغذية الشعور بالمسؤلية أمامه يوم لا تملك نفس لنفس شيئا.

٣– الإعتزاز برسالة الإسلام، بوصفه عقيدة وشريعة وحضارة ونظام حياة، أودع الله فيه الكمال والشمول والتوازن والوضوح والعمق.

٤– المحافظة على شعائر الإسلام، وبخاصة عباداته الكبرى، التي جعلها الرسول (ﷺ) الأركان العملية التي بني عليها هذا الدين، من الصلاة والزكاة والصيام وحج بيت الله الحرام، وتربية جميع المواطنين في المجتمع على احترامها وتوقيرها، وتربية المسلمين خاصة على حبها والحرص على أدائها بإخلاص وأمانة واتقان. (أنظر: الحل الإسلامي فريضة وضرورة، يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة– بيروت، الطبعة الثالثة عشر ١٤٠٩هـ– ١٩٨٩م، ص٤٩.) ❐